الموسوعة النفسية

1

علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

إسم الموسوعة : موسوعة عالم عِلم النفس

إسم المؤلّف : الدكتور عبد المنعم الحفني

إعـداد : قسم الدراسات في دار نوبِليس

بـإشراف الأستـاذ غسّان شديد

قياس الكتاب : 27.5 × 19.5 سم

عدد صفحات الجزء : 320

عدد صفحات المجموعة : 6436

إسم الكتاب : الموسوعة النفسية – عِلم النفس والطب النفسي

في حياتنا اليومية - مجلد (1)

مكان النشر : بيروت – لبنان

دار النشر والتوزيع : دار نوبِليس

تلفاكس : 961 1 583475

تلفون : 961 1 581121

961 3 581121

الطبعة الأولى : 2005

عالم عِلم النفس

1

الدكتور عبد المنعم الحفني

الموسوعة النفسيّة

عِلم النفس والطب النفسي في حياتنا اليوميّة

المجلّد الأول

NOBILIS
MAISON D'EDITION

جميع الحقوق محفوظة للناشر
© 2005

كلمة الناشر

عالمُ علم النّفس
موسوعة كاملة لعلم متكامل

الطب النفسي، وعلم النفس والتحليل النفسي، العِلم النفسي للأحلام، معجم التحليل النفسي، مدارس عِلم النفس وأعلام عِلم النفس، إضافة إلى الموسوعة النفسية الجنسية؛ جمعناها ٢٤ مجلداً بعنوان «عالم عِلم النفس» لتُـؤرِّخ بالتفصيل تاريخ هذا العلم منذ بداياته الأولى، والحركات التي تفرَّعت من مدرسة فرويد الذي يُعتبر، من دون منازع، رائدها الأول. ثم أفردنا المجلّدات الثلاثة الأخيرة لمصطلحات هذا العِلم ولما وضع فيه من مؤلّفات، وللموتمرات التي عقدها المؤسّسون له في معجم موسوعي شامل بأربع لغات، هي العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية.

وبذلك تكون دار نوبِليس قد ساهمت، في هذا الميدان العلمي المهم والشيِّق، لتزوّد المكتبة العربية سلسلة كاملة لعِلم النفس الذي يؤثّر في حياتنا اليوميَّة ويسبر أغوار عمرنا منذ الطفولة الأولى، وما قبل!.

ويطيب لدار نوبِليس أن تتقدَّم بالشكر إلى الدكتور عبد المنعم الحفني الذي جمع بعلمٍ وصبرٍ ودقَّة، هذه المعلومات الموسوعية المتعلّقة بعِلم النفس التي نزفُّها إلى قرّاء العربية من المحيط إلى الخليج في أروع ما يكون من المجلّدات، لتكون متعة للنظر والفكر. والله وليُّ التوفيق.

نبيل عبد الحق
صاحب دار نوبِليس

الموسوعة النفسية

علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

في التعليم، والتربية، والتجارة، والصناعة، والأدب، والفن، والحرب، والسلام، وفي الصحة والمرض، والعلاج النفسي، وفي البيت، والمصنع، والشارع، والزواج، والغرائز، والحب، وفي التخيل، والقيم، والمعايير، وفي الموضة، والبغاء، والقمار، والمرور، واللعب، والجنس، والنوم، والعادات، والتحيل والإنجاز، وفي النوم واليقظة والأحلام، وفي الحسد والخرافة، والسحر، والدين، وفي الجريمة والعقاب والثواب، والإعلان والدعاية والإعلام إلخ، والاختبارات والاستبيانات والمقاييس المستخدمة في ذلك...

الباب الأول

علم النفس والطب النفسي
في خدمة الأدب
والفن والفكر

ـ ١ ـ
سيكولوجية الأدب والفن

الأدب والفن ومعناهما النفسي. أنماط الشخصيات الأدبية في علم النفس. الدراسات النفسية للأعمال الأدبية. عالم الأديب وطريقة الأدب في الاصطفاء من الواقع. الأدب يتسامى على الواقع. إختلاف الميول النفسية عند الأدباء بحسب تخصّصهم. الإبداع الفني والحدس الأدبي. الأدب السيكولوجي. الموهبة الفنية وصراعات الأديب والفنان...

❖ ❖ ❖

الكثير من الأعمال الأدبية والفنية المعاصرة يتصل بناؤها بعلم النفس وكشوفه ومجالاته بأسباب قوية. وينصرف الأدب Literature إلى استجلاء النفس البشرية، وهو الهدف نفسه الذي يترسّمه علم النفس. وكلما تقدمت البحوث في علم النفس فإن ذلك له انعكاساته على الكتابات الأدبية، وخاصة في مجال الدراما بفرعيها، الرواية والمسرحية. وكانت شهرة بعض الروايات أو المسرحيات سبباً في اتخاذ علم النفس من بعض أسماء شخوصها أو مؤلفيها مسميات لانحرافات أو اضطرابات نفسية اشتُهرت بها، فالسادية Sadisme نسبة إلى الماركيز دي ساد Marquis de Sade (١٧٤٠ - ١٨١٤)، الكاتب الفرنسي الذي تخصّص في وصف حالات الأشخاص الذين يعانون من العنف الداخلي، ويستمدون لذّة من إنزال الألم بالآخرين، كما في رواية «Justine ou les malheurs de la vertu».

والماسوكية Masochismus نسبة إلى ليوبولد فون ساخر ماسوك أو ماسوخ Masoch (١٨٣٦ - ١٨٩٥)، الكاتب النمسوي الذي كانت شخوص رواياته واغلة في الجنس، وتجد لذّة من معاناة الآلام يُنزلها بها الآخرون، على عكس السادية؛ وتشتَهر العُقد النفسية بأسماء شخصيات درامية من أعمال كبيرة لسوفوكل ويوروبيدس وغيرهما، فهناك عقدة أوديب Oedipus Complex مثلاً نسبة إلى الملك أوديب Oedipus the

King، الشخصية الأسطورية، صاحب أروع مأساة في تاريخ المسرحية اليونانية، وكذلك عُقَد أوريست، وكليتمنسترا، وإليكترا، وجوكاستا، وميديا، وفيدرا، وجميعها تناولها المسرحيون الثلاثة الكبار: إسخيلوس Aeschylus (٥٢٥ - ٤٥٦ق.م). ويقتبس علماء النفس أسماء مشهورة من الأدب الأسطوري والديني مثل عُقدة قابيل، وعقدة ديانا، وعقدة إخوة يوسف، وعقدة سارة زوجة ابراهيم عليه السلام. وهناك دراسات نفسية لروايات ومسرحيات مشهورة مثل مدام بوڤاري Madame Bovary لفلوبير Flaubert (١٨٢١ - ١٨٨٠) ويطلقون على الحالة النفسية التي تتسم بها إسم البوڤارية Bovarism. وبعض الروايات هي دراسات نفسية خالصة لاضطرابات معروفة، مثل الجريمة والعقاب Prestupleniye i nakazaniye (١٨٦٦) لدستويفسكي Dostoyevsky (١٨٢١ - ١٨٨١)، وكان روائياً له بصيرة نفسية نافذة، وعلم ودراية بالنفسية الإنسانية وانحرافاتها وشذوذها.

وهناك مسرحيات لكتّاب مشهورين مثل هنريك إبسن Ibsen (١٨٢٨ - ١٩٠٦)، أفادت من نظريات علم النفس، وإن كان إبسن وغيره من الموهوبين لا يَظهر تأثرهم بالاتجاهات العلمية السيكولوجية مباشرة. وتدور معظم مسرحيات إبسن على أفكار ترتبط بالوراثة، مثل: «الأشباح Ghosts»، «وعدو الشعب An Enemy of the people»، و«بيت الدمية A Doll's House». ونعلم أن الجدال ما يزال بين أصحاب نظرية الوراثة ونظرية البيئة حول تشكيل النفس الإنسانية وميولها ونوازعها واهتماماتها. وكان الأدب دائماً كاشفاً لخبايا النفس التي يمكن أن تحتجب عن الناس في تعاملهم اليومي بسبب الغفلة التي يكونون عليها، حيث لا تتطلب تعاملاتها كبير دراية بالنفس، ويميل الأفراد إلى فهم الناس باعتبارهم أنماطاً، وميزة الأديب أنه إنسان يخترق الحُجُب، وينزع الأقنعة، ويُعرّي الأشخاص وأهدافهم، ويناقش قيمهم السلوكية، ويطرح ذلك من خلال العلاقات الشخصية البيئية، والاحتكاكات والمماحكات والصراعات

وتبادل الأفكار ومطارحة الأقوال. وإذا كنا كبشر نميل إلى تبسيط الأمور وردّ الكثرة إلى الوحدة في معاملاتنا، ونميل إلى التجريد والعموميات، فإن الأديب على العكس في رسمه للأشخاص لا يكرر الشخصية، ويصوّرها متميّزة، بتفاصيلها ورغباتها وعواطفها وآمالها وآلامها وطموحاتها. وعالم الأديب هو عالم أفراد متكثرة، وطريقة الأدب هي الاصطفاء من الواقع، واختيار ما يخدم الرؤية الفنية من الأحداث والوقائع. وكل أديب ينحصر اهتمامه بالواقع وإدراكه ومن ثم له رؤياه الخاصة، على عكس الإنسان العادي غير الأديب الذي تتوجه إهتماماته للواقع إلى ما يشبع حاجاته، ويفهم من الناس بقدر ما ييسر له التعامل معهم، بينما الأديب يدرك الأفراد لذواتهم، ويحيط بالواقع من علاقاته بهم سلباً وإيجاباً. وإذا كان بعضنا قد يغلب على اهتماماته بالحياة الجانب الحسّي العملي، أو العقلي، أو الأخلاقي، أو الديني، فإن الأديب يغلب عليه الجانب الجمالي، إلا أنه أيضاً يمكن أن يكون له أيٌّ من الجوانب السابقة، أو أن يكون في الوقت نفسه حسياً عملياً، أو عقلانياً، أو أخلاقياً، أو متديناً صوفياً، وأن تكون له إشراقات ميتافيزيقية. ولعل ذلك يفسّر أن بعض الأدباء لهم رسالات اجتماعية، كتولستوي مثلاً أو نجيب محفوظ، أو يوسف السباعي، أو يكتبون بإلهامات دينية كفرانز كافكا، وعبد الرحمن الشرقاوي، وقد كان الكثير من المتصوفة شعراء، كرابعة العدوية، وابن عربي، والبوصيري، وأبي العلاء المعري.

والأديب له مواقفه المتميّزة من المجتمع والإنسان والكون، وتبعاً لاختلاف هذه المواقف يكون اختلاف عوالم الأدباء، ويمكن أن يكون عالم الأديب محدوداً بحدود ثقافته وخبراته واهتماماته، ويمكن أن يتسع ليشمل الكون كله ويكون زاخراً بالعواطف الغنية والأفكار الثريَّة. وكما نفرّق بين عالم الأديب وعالم غير الأديب، فكذلك نفرّق بين عوالم الأدباء، فمنهم من يكون شاعراً، أو روائياً، أو مسرحياً، وينعكس عالم كلّ في أدبه. وهذا التخصّص يفسّره علم النفس بأنه ظاهرة نفسيّة وتعويض عن طموحات ورغبات أساسية، لم يشبعها الأديب في نفسه وحياته بسبب

عوائق من داخله أو خارجه. والأدب على ذلك تعويض يتسامى Sublimation به صاحبه عن الواقع غير المفهوم والمختلط والمتشابك، ويصنع به واقعاً متميزاً ومفهوماً. وهناك دراسات كثيرة في مجال علم النفس على الآثار الأدبية. وفي حياة الكثير من الأدباء لاستكناه الدوافع التي تجعل من الأديب أديباً، أو التي تدفعه إلى هذه الصياغة الأدبية أو تلك، أو التي تجعله يختار موضوعات بعينها، أو يرسم شخوصه على منوال معين. أو تكون من خلال رواياته ومسرحياته رؤيا فلسفية وفنية خاصة. وتذهب بعض النظريات النفسية في الأدب كما عند فرويد وأدلر، إلى أن الأديب إنسان مُخفق في حياته، وأنه يعوّض عن اخفاقه بالخَلق الأدبي، متسامياً بغرائزه. ومن رأي بعض النفسانيين أن الأديب تسيطر عليه من طفولته بعض ميوله الغريزية ورغباته، فتجعله يؤثر مجالاً من مجالات الأدب على سائر المجالات، سواء بالخَلْق أو التذوّق. وقد تتعرض ميولنا ورغباتنا للكفّ أو الكبت، فتتّجه إلى مسارب أخرى غير مباشرة للتنفيس، وتؤدّي بنا إلى الخلق أو التذوق لأنواع من الكتابات دون غيرها، وقد نتّجه إلى الرسم أو التصوير أو التشكيل. وقيل إن الشعراء يغلب عليهم الطابع النرجسي Narcissistic، بينما المسرحيون لديهم ميول إستعراضية Exhibitionistic، والروائيون يحبون الكلام ويبدو عليهم الطابع أو النمط الفموي، أو أن شخصياتهم بها الكثير مما يقال له الشخصية الفموية Oral personality. كما قيل في مجال الفنون أيضاً إن العنصر السادس الشرجي Anal sadistic يميل بالفنان إلى ممارسة التشكيل، وإلى أن تكون تعبيراته تشكيلية، وأن يصوغ أفكاره صياغات فنية تشكيلية. وكذلك فإن حب الاستعراض قد يجعل البعض يمتهن التمثيل. ولا شك أن الممثل إستعراضي من الطراز الأول، كما أن هواة الفنون والمسرح والباليه خصوصاً لا شك قد وُهبوا ما يقال له حُبّ التطلّع Voyeurism، كما إن الميول الجنسية المثلية قد تجعل البعض يهوى فن الرقص. وقد تبين إحصائياً أن أغلب مشاهير الراقصين مأبونون، وأن مصمّمي الأزياء يعانون

غالباً من التخنث بارتداء الملابس النسائية والتفنّن في صُنعها وتصميمها. ويقال لذلك النوع من الشذوذ Transvestism أي التشبّه بالنساء في الملبس والمظهر والمخبر. ويؤيّد هذه النظرة النفسانية أن الأدباء والفنانين في تخصصاتهم المختلفة تُلاحَظ فيهم هذه الطباع. ولعل أكثر ما يلفت النظر إلى تخصص الأديب أن عالمه هو عالم فني وليس عالماً عملياً. بمعنى أنه ينسجه من خياله ويختاره بإرادته الحرّة، كما يقول سارتر عن بودلير - أنه قد اختار في أشعاره أن يرى نفسه، أو أن اختياره لهذا العالم بوحي من تكوينه البيولوجي النفسي كما يقول برجسون - إن بعض النفوس بها ميل فطري تنفرد به في النظر والفهم والتفكير، وان الأديب يكتب بتأثير من نزعاته الخاصة. وربما كان هذا الاختيار لأن الأديب ليس له أن يختار إلا ما اختاره الله له كما يقول شعراء المتصوفة وفلاسفة الوجودية، مثل سارتر في روايته الفذّة «دروب الحرية Les Chemins de la Liberté». وقول سارتر إن بودلير Baudelaire (١٨٢١ - ١٨٦٧) اختار أن يرى نفسه في أشعاره، لأنه كان بوهيمياً بحكم تكوينه النفسي البيولوجي، فكان لا يكتب إلا أشعاراً بوهيمية، وقد اختار لنفسه عشيقة عاشرها كزوجة كانت سوداء وفي غاية القبح كانت تدعى جان ديڤال، وكتب عن النساء المثليات الجنسية كما في مجموعته الشعرية: «اللزبيانيات Les Lesbiennes». والمهم أن عالم الأديب، وهو هذا العالم الفني، يصنعه بحيث يأتي وكأنه ليس من الخيال وإنما هو عالم عياني Concrete. ويتميّز الأديب عن غير الأديب بأنه زُوِّد بقابليات حسية وعقلية ونفسية تهيؤه للرؤية والتعبير بفن من فنون الأدب دون سواه، فهو شاعر، أو ناثر مسرحي، أو روائي، أو قصّاص حسب تخصّصه. وهو في أدبه ينحو إلى أن يُخرج من إطار شخصيته، ويتمثّل نفسه في شخوصه التي يطرحها كائنات حيّة تسعى، ولها تميزها وحياتها وتفاصيلها الشخصية. والأديب يتّجه في أدبه إلى أن يكون لاشخصياً Impersonal، فلا تدرك مما يكتب أو يصوغ أنه يحب هذا أو ذاك، أو يؤثر هذا على ذاك، وإنما هو يعلو على

ذاته ويصنع عالماً قد يكون متّسعاً، أو قد يضيق قليلاً، أو يرحب كثيراً، بحسب رؤياه الفنية، ويستهدي فيه بخيال فني، ليس كالخيال الذي يكون لنا في حياتنا اليومية، فهو خيال خاص يصبو به إلى واقع أكمل، ولا يحتاج به إلى أن ينتقي شخوصه من الحياة، وإنما هو يصوّرهم من ذاته التي تتسع لتكون كل هذه الذوات للشخوص التي يصوّرها، وذلك أن ذاته تتضمن كل هذه الذوات الأخرى التي كان من الممكن أن تكون هي نفسها ذاته. ومن رأي النفسانيين أن الذات التي يؤلّفها الأديب هي إمكانات لذاته، أو أنها ذاته في حالة كمون أو خمود، والأديب لا يفعل سوى أن يوقظها ويبعث فيها الحياة فتتحرك وتتحدث وتنفعل وتفعل كما في رواية: «A Portrait of the Artist as a Young Man» لجيمس جويس Joyce، وشخصية ستيفن ديدالوس في القصة هي نفسها الصورة الفنية لشخصية جويس نفسه. فالأديب بين ذاته وشخوص أدبه في علاقة جدلية، وكلما كانت ذاته ذات ثريّة بالخبرات والانفعالات والعواطف كلما كانت شخوص أدبه غنية وجاءت على قدر من العمق والرحابة يلفت إليها الأفهام، وبمعنى آخر فإن شخصية الأديب كلما تحررت من التحديات والتقييدات كلما كان تمثله لما يرسم من شخوص أرحب وأعمق. ويتميز الأدباء في ذلك بحسب شخصياتهم، والذي يميّز الخيال الأدبي أو الفني عن الخيال الذي يكون للمفحوص في اختبار من اختبارات الشخصية، أن أخيلة المفحوص في هذه الاختبارات هي إسقاطات شخصية محدودة بحدود شخصيته ويتجاوزها باستمرار. والكثير من الأعمال الأدبية الحالية هي محاولات في التحليل النفسي، وبعضها يكون كما نقول في مجال علم النفس «تاريخ حالة»، وبعضها لا يكون التحليل النفسي فيه صريحاً ومباشراً، ومع ذلك لا يمكن إلا أن تكون هناك هذه المحاولات في تحليل الشخصيات ودوافعها من جانب أبطال الرواية أو المسرحية أنفسهم، أو من جانب المؤلف أو النقاد. وبعض الأعمال الأدبية تظهر فيها «النفسانية Psychologism» ظهوراً واضحاً كرواية «السراب» لنجيب محفوظ حتى ليكون

تأليفها كالتلفيقات المصطنعة، فلا نحسّ فيها بنبض الحياة الصادر عن صدق الرؤيا والحسّ، وصدق الحدس الفني والبصيرة الأدبية، وهي قدرة الأديب على معايشة أبطاله وتعاطفه معهم. والأديب في ذلك يقارن موقفه بالطبيب النفسي، ففي الطب النفسي لا بد أن يتعاطف الطبيب مع مريضه دون أن يتورط معه عاطفياً، والأديب أو الطبيب النفسي غير المتعاطف مع أشخاصه أو مرضاه لا يمكن أن يتمثل أحوالهم النفسية، ويسبر أغوارهم، ويعايش خبراتهم. ولن يستطيع الأديب الذي لا يتعاطف مع أشخاصه تصويرهم تصويراً فيه بصيرة الأدب وصدق الرؤيا الأدبية. والرواية الأدبية التي تقوم على المعرفة السيكولوجية دون الحدس الأدبي Literary intuition لا بد أن تأتي مطبوعة بالصنعة والافتعال. ولا يفيد الأثر الأدبي أن يكون مبنياً على حقائق من علم النفس. والعبرة أن تأتي هذه الحقائق في ثناياه وتبطّنه ولا تشدّ الانتباه إليها دونه. ومسرحية كعطيل لشكسبير Othello تقوم على الغيرة، وعلى حقائق نفسية أجناسية لا تشدّنا إليها واقعية الخصائص النفسية لإياجو وعطيل وديدمونه، وإنما روعة الصياغة الأدبية والسياق الفني للمسرحية، بحيث يصنعان واقعاً فنياً يوازي واقع الحياة إن لم يتفوق عليه من حيث الوضوح والتفرّد. فإذا شئنا ونحن في معرض الحديث عن الغيرة مثلاً أن نضرب لها مثلاً فإننا لن نجد أوضح وأميز من مَثَل عطيل، وتلك خاصة من خصائص الأدب الرفيع أنه يقوم على حقائق نفسية حتى ليُستشهَد به، ويأتي ذلك فيه من خلال النسيج الأدبي. ولربما يَصدُق يونج في تفسيمه للأدب بأنه إما أدب سيكولوجي وإما مجرد وقائع عيانية، والأدب الأول هو الأدب الذي ينصرف الاهتمام فيه إلى النفس الإنسانية وتصويرها والتوعية بها، وهو لذلك أدب يصور الناس في حياتهم وهم يعتركون ويتصالحون، ويحبون ويكرهون، ويسعدون ويشقون، وينفذ إلى دوافعهم ويصف سلوكياتهم، بينما الأدب الثاني فيه الكثير من الخيال والحبكة والصنعة دون أن يتوغل في النفوس أو يهتم بالعواطف، ومن ذلك أدب الخيال العلمي Scientific fiction والروايات

البوليسية Detective stories. ومن الطبيعي لذلك أن يهتم علم النفس في تطبيقاته بدراسة «العملية الأدبية The literary process»، أي الخلق الفني في الأدب، والمقومات النفسية للأثر الأدبي وللأديب والتي بها يتميز هذا الأثر عن أية كتابة أخرى ليست أدبية، أو تكون للأديب فتميزه عن غير الأديب، وتجعل منه خالقاً ومن أدبه إبداعاً. ومن مزايا الدراسات السيكولوجية للأدب: إنها تجعلنا نفهم المضمون الأدبي أكثر، واتجاهات الأدباء، ونتذوق العمل الأدبي. وما من شك أن شخصية الأديب تؤثر في أدبه، وفي تذوقه واختياره لموضوعاته، وفي صياغته لأسلوبه ولغته، وفي بنائه لشخوصه ومواقفهم من الحياة. وكان لفرويد Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) ولمدرسة التحليل النفسي Psycho-analytic school، وخاصة من بعده عند يونج Jung (١٨٧٥ - ١٩٦١) ومدرسة زوريخ، وعند أدلر Adler (١٨٧٩ - ١٩٣٧)، وشتيكل، وجونز، وجرافت، ورانك، وفون هيلموت، وسانجر، وجراف، وستوفر، ووايت وجيليف، ومن تابعهم؛ الفضل الأكبر في إيجاد نقد أدبي سيكولوجي من نوع جديد، والتوعية بالمبادئ اللاشعورية التي أوضحت الكثير من جوانب عملية الخلق الأدبي والتذوّق الفني، والتدليل على أن الأدب ظاهرة بيولوجية نفسية Psycho-biological phenomenon في المقام الأول، وانه تعويض متسام Sublimating compensation لرغبات لم تشبع، فالحرمان وما يترتب عليه من ألم ينشّطان الموهبة الأدبية، وبواسطة الإبداع الأدبي يعوِّض الأديب عما حُرِم منه، فيحل عالم الأدب عنده محل عالم الواقع. والحرمان يُذكّي الخيال، ومن شأن الفقر الذي تكون عليه ظروف الأديب الخارجية أن يدفعه إلى أن يكون له عالم داخلي غني يطرحه خارجه في رؤية أدبية عظيمة، وما من أديب، ولا فنان، ولا رسّام، ولا موسيقار حقيقي، إلا وكان يعيش في واقع مصادمٍ له، ويستشعر الحرمان، ويعاني من الجدب العاطفي. ويذهب أصحاب هذه المدرسة النفسية في الأدب إلى البرهنة على دعاواهم النفسية بالتغييرات التي تستحدثها ظروف الأديب الجديدة إذا انصلحت

بالنجاح أحواله المادية، فيتضاءل إنتاجه من ناحية الكم والكيف، وتنتفي عنه - للعجب - صفة الابتكار، وتضمحل ملكته الأدبية بتأثير الدعة والاسترخاء والإشباع الذين يصير إليهم مع الشهرة والرواج.

وطالما أن الأديب أو الفنان يعاني - كإنسان - سيكولوجياً حتى لكأنه كالمريض النفسي، وطالما أن الإبداع عموماً إنتاج فني أو أدبي يميّزه باعتباره مريضاً نفسياً، فإن معالجته من اضطراباته النفسية ستفسد عليه حتماً تفرّده وعبقريته، فعندما يعاني الفرد من الكبت أو الكفّ أو القمع، فإن غرائزه، لتتحصّل على الإشباع ولو رمزياً، قد تلجأ إلى الأحلام أو إلى التسامي الديني أو الأدبي أو الفني، كطريقة بديلة للإشباع، ولذلك كان الحب هو المحور الذي تدور عليه غالبية الأحلام والقصص والشعر والتصوير والنحت والإشراقات الصوفية. وكل الأدب الفني محوره الفَرَج أو البطن، فالأدب الجنسي أو الرومانسي هو من نوع أدب وفن الفرج، وإذا تطرّف كان الأدب المكشوف أو ما يسمى Pornography؛ والأدب الثوري أو الأدب الاجتماعي هو من نوع أدب وفن البطن، ومن ذلك رواية «البؤساء Les Miserables» (١٨٦٢)، ومن أمثال أدب الجنس روايات هنري ميللر Miller، كثلاثيته في سيرته الذاتية بعنوان: «Sexus» ، و «Plexus»، و«Nexus» (١٩٤٥ - ١٩٦٠)؛ ومن أمثال الأب الفاضح أو المكشوف رواية لورنس Laurence: «عشيق اللادي تشاترلي Lady Chatterly's Lover» (١٩٢٧). ولا يمكن أن يحلم بالجنس إلا المحروم منه، وكذلك لا يمكن أن يتغنّى به إلا من كان معذباً به. والجوع إلى الجنس أو إلى الخبز - كما سنؤكد دائماً هو مصدر كل النشاط الفني والأدبي. وليس الشعر والموسيقى والرقص والكثير من التصوير والنحت إلا أشكالاً مثالية للرغبة والحرمان بأنواعه وبدرجاته. وليست اللذة المتحصّلة من مشاهدة الجمال ومعاينته إلا إشباعاً نفسياً جنسياً في حقيقتها، وهي لذلك قد تكون جزئياً سادية أو ماسوشية أو نرجسية، أو أساسها الميول الاستعراضية، ومنها أيضاً لذّة الأديب إذ يرى رواج روايته، أو إقبال الناس على مسرحيته، أو إنصاتهم لشعره، فيُرضي

ذلك غروره، وتتحقق به أحلامه في المجد والعظمة، ويولّد ذلك سعادة ترقى إلى التهيُّج الشبقي. والحب الذي يلهم كل الأعمال الأدبية الكبيرة هو الحب الذي لا يشبع نفسياً، وقديماً قال بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) عبارته المشهورة: «إن كل امرأة ينام معها هي رواية لم تكتب»، أي ان ما يكتب هو قصة الحب اليائس. وبلزاك أيضاً هو القائل: «إن إيروس - إله الجنس - كان الأجدر أن يكون الماسك بقيثارة الشعر بدلاً من أبوللو - إله الشعر والموسيقى والفن»، يعني كان الأجدر أن يُنسب الإبداع إلى إيروس أو الجنس أو الرغبات الشهوية، وليس إلى نشدان الجمال للذة الجمال.

ويتصل الأدب اتصالاً وثيقاً بالحلم، والعمل الأساسي للأدب والحلم هو تحرير الغريزة من عقالها تحريراً رمزياً. والحلم والشعر كلاهما نتاج رغبات جنسية لم تتحقق ولم تجد الإشباع وكُبتت في اللاشعور، والفرق بينهما أن الإنسان العادي يتواصل مع اللاشعور أثناء النوم، بينما الشاعر بالإضافة إلى ذلك يمكنه أن يتواصل معه في اليقظة. «والشاعر» هو الذي يستطيع أن يخلق في حال اليقظة ما لا يستطيع أن يخلق «الانسان العادي» إلا في النوم. ومن غير الممكن أن يقوم شعر عظيم بدون حرمان، وكان ذلك سبب عظمة دانتي كما قال شوبنهاور، فقد استطاع دانتي أن يكتشف أن بإمكانه أن يحلم أثناء اليقظة، وأن يستعيض بالحلم عن الواقع، وأن يكون شعره تعبيراً عن حب عظيم. والشاعر أو الأديب عموماً أو الفنان، في موقف يتوسط بين الحالم والعُصابي، وفي حالة الحالم، والأديب، أو الفنان، والعُصابي فإن الثلاثة يهربون من الواقع إلى عوالم متخيّلة، إلا أن الحالم يفيق من حلمه مع اليقظة، والأديب أو الفنان يلجأ إلى الخلق والإبداع، بينما العُصابي Neurotic هو الوحيد الذي يستمر سادراً في عالمه المتخيَّل. ومع ذلك لا يخلو التعويض بالتسامي من بعض العُصابية، ويمكن أن يكون تعويضاً عُصابياً Neurotic compensation، كما إنه عند العصابيين قد تتسرب بعض الميول الأدبية والفنية فتكون لهم كتابات فنيّة في بعض الأحيان. وهناك الكثير من الابداعات الأدبية فيها الكثير من عناصر

العصاب والذهان مثل رواية: «Justine ou les malheurs de la vertu»، ورواية: «La philosophie dans le boudoir» للمركيز دي ساد. ومن رأي شتيكل Stekel (١٨٦٨ - ١٩٤٠): «إن الأديب يتخفف بالأدب، والشاعر يتداوى إلى حد كبير بالخَلْق، والإبداع الفني هو إفراغ وتنفيس وتطهير، وهو تحليل نفسي يتولاه الأديب بنفسه لنفسه. والإبداع الأدبي بالنسبة لأديب يعاني - هو غذاء»، والكثيرون يصفون إلهة الإبداع بأنها للأديب أو الفنان كالأم الحنون، والأدب والفن عزاء الأديب والفنان. والأديب يقارب في إبداعه الفني الانسان الانطوائي العصابي The neurotic introvert، ورغباته التي لم تشبع تقوّي خياله، وهو بالأدب يعود من الخيال إلى الواقع مع استمرار الحلم. ويقول فرويد إن الأديب الذي يحلم بالحب والمجد والسلطة والثراء تتحقق له أحلامه ورغباته وأمانيه من خلال كتاباته الأدبية، ويحصل بها على ما لم يكن له من قبل إلا في خياله.

ولا بد للأديب من أن يعرض أدبه على الناس، وأن يقرأوه ويطالعوه، ليشبع بذلك ميوله الطفولية للاستعراض أو للاستعراء. وهو يطرح في أدبه مخاوفه الطفولية من العقاب ليبرئ نفسه، وإنتاجه الأدبي هو نوع من الاعترافات، والكثير من الأدب العظيم هو اعترافات، وحتى في الأدب العربي كان هناك أدب الاعترافات، ككتاب المنقذ من الضلال للغزالي، والغزالي أديب عظيم ومفكر له تأثيره على الفكر الفلسفي الأوروبي والاعتراف من عمليات التحليل النفسي، وهو إسم آخر لميكانيزم من ميكانيزمات التحليل النفسي هو التداعي الحر Free association والأديب يحلل نفسه بالاعترافات، وهو في حاجة إلى قرّائه ومطالعيه، وهم بالنسبة له كالمحكمة، كما في مسرحية «الشرفة Le balcon» لجانيه. والأديب في حاجة لأن يقف أمام محكمة نفسه وإلا فإنه يظل يعيش في قلق وصراعات، وتعتصره مشاعر الذنب. وطرح الأديب لمنتجه الأدبي في الأسواق ليس سببه حبه للظهور، أو إثبات وجوده على مسرح الواقع، أو أن ينال الشهرة والمجد فقط، ولكنه كي يتخلص من الرغبات المستعرة في اللاشعور والتي

تهدّد توافقه مع المجتمع والناس ونفسه، وينفض عن نفسه عقدة النقص ومشاعر الذنب التي تستولدها، والإبداع الفني هو تحرير لنفسه.

ومحبة الناس للأدب، والفن عامة، لأنهما عالم يمكن أن نهرب إليه، وأن نجد فيه العزاء والسلوى، والانسحاب إلى هذا العالم ليس انسحاباً ولكنه يكفي لكي يعطينا بعض الخدر اللذيذ الذي لا نستشعر معه بقسوة الحياة وسلطان مطالبها، وهو انسحاب بسيط لا يبلغ من العمق ما يكفي لكي ننسى به شقاءنا الواقعي كما يقول فرويد. وحتى بالنسبة للأديب أو الفنان فإن ما ينتجه لا يكفي ليتخفف به من شقائه فيعاود لذلك الكتابة والإبداع ليكتمل له التخفف والتطهر اللذان لا يكتملان أبداً.

والواقع أن نفسية الأديب أو الفنان لا بد أن تكون محلاً لصراعات نفسية لا تنتهي، وليس معنى ذلك أنه بالصراعات النفسية فقط يكون الأديب أو الفنان، فلا بد من الموهبة الأدبية أو الفنية، وليست هذه الموهبة ميلاً فطرياً للفنون والآداب، فهذا الميل يمكن أن يوجد للكثيرين ولكن القلة تكون لديها هذه الموهبة التي يتجه بها الحرمان والشقاء والتسامي إلى الابداع الأدبي أو الفني، ولا يمكن أن تتفتح الموهبة للأديب إلا بالمعاناة ومعايشة الواقع. وبعض الأدباء وخاصة في الشعر يمكن أن تستغرقهم عملية الإبداع فينصرفوا إليها، إلا أن الروائيين والقصّاصين والمسرحيين والموسيقيين والرسّامين يمكنهم كثيراً أن يوفقوا بين تفرّغهم للأدب وللفن وحياتهم العملية. وكل أديب أو فنان هو في الواقع إنسان يحاول أن يتوافق مع الواقع بشكل من الأشكال، ولو إلى الحد الأدنى الذي بدونه لا يمكنه أن يداوم البقاء في الحياة، والبعض كانت حياته زاخرة وحافلة ونشيطة، وتلك حالات نادرة لا يقاس عليها حيث الأغلبية يعانون من سوء التوافق. وقد لاحظ علماء النفس أن الأدباء والفنانين بوجه عام - كما سبق أن نوّهنا - يتصفون بما يتصف به العُصابيون، وأن حياتهم تمتلئ بالمآسي وتحفل بالصدمات النفسية، وقد تكون هذه الحياة الأسيانة هي السبب في هذه العصابية، كما قد يكون الميل الفطري